

ضوء في المجرة



ببلوتيك

د. أحمد خيرى العمري

يوم، شهر، سنة

سلسلة ضوء في المجرّة

يوم، شهر، سنة

تليجرام <https://t.me/ktabpdf>

د. أحمد خيري العمري

facebook.com/ktabpdf/

مؤلمة هي الذاكرة؛ خاصة عندما تكون جارحة مسننة،
مدبية، خاصة عندما لا تغفل شيئاً، وتكون التفاصيل مثل
حد السكين يجول ويصول في أعماقك..

مؤلمة هي الذاكرة، ودرب الغوص فيها مؤلم، إنك أحياناً
لا تذهب إليها، لكنها تأتي إليك، وتسكنك، مثل جني ملعون
يتلبسك، فأينما تذهب يظهر لك، وفي كل زاوية ومنحنى يوجد
تفصيل يؤلم ويعذب، بل ويحرق، إنها الذاكرة الرجيمة التي
تعذبك مثل جني يتقمصك ويخرجك عن طورك وعن أحوالك
الاعتيادية، وإذا بك مخلوق آخر يتعذب بذاكرته..

* * *

يا صديق...

والمؤلم أكثر أن تكون الذاكرة التي تعذبك ليست لك، بل
استعرتها من شخص آخر، (من صديق مثلاً)، وهي استعارة
لا تكون بإذن مسبق، ولا تحدد بأجل معين، إنها أشبه
بسرقه، بل بسرقة مرضية (الكيتومانيك)^(١) السارق فيها لا
يملك من أمره شيئاً، اعترف!، والمسروق فيها كأني مسروق
آخر، مسروق!

على الخيط الرفيع الفاصل بين المرض وبين الغيرة والحرص
والأشياء الأخرى تتأرجح تلك السرقة الوحيدة التي لا يعاقب
عليها القانون، ولكن تعاقب عليها البضاعة المسروقة نفسها؛

(١) مرض نفسي يدفع بضحاياه إلى السرقة دون دافع إجرامي واضح.

تلدغ السارق مثل أفعى جهنمية تثار لميت لم ييك عليه أحد..

اعذرنى يا صديقي، لقد سرقت ذاكرتك، بالأحرى وجدت نفسي متورطاً بسرقتها، استيقظت ذات يوم وإذا بها في دماغي، إذا بها تحل محل ذاكرتي، وإذا بها تحاسبني وتحاكمني، وتحكم علي، بل وتعاقبني، وعقاب ذاكرتك التي سرقتها يا صديق، مؤلم مؤلم، إنني أجلد كل يوم مئة مرة يا صديق، وفي كل مرة ينتهي الجلد، أكاد أراهم يحضرون الحجارة لرجمي، فأناقشهم وأجادلهم، وأتحن الفرصة لأهرب، ثم يعاد الجلد، والجلد.. والجلد..

لو أنك رأيت ظهري، لربما رأيت أثر الشياط عليه، إنها ذاكرتك التي تورطت بها يا صديق، وهذه الشياط كان يجب - نظرياً - أن تكون على ظهرك أنت، والحجارة التي كانوا يعدونها للرجم كانت - نظرياً - معدة لك..

لكن ذاكرتك تقمصتني، أو إني أنا الذي تقمصتها؟ فإذا بالسياط على ظهري أنا، وإذا بالألم أحسه أنا، وإذا بي غارق تماماً في ذلك كله..

اعذرنى يا صديق لأنني سرقت منك ذاكرتك، سيزيد من عذابي الذي أشعره أن أكون قد سرقت!، سيزيد من عذابي أن أعذب على السرقة..

أو أقول لك: اعذرنى أو لا تعذرنى يا صديق. وافهمني أو لا تفهمني، فالغريق لا يخاف من البلل.

* * *

لعل الأمر لا يزال غامضاً، لعلك تظنه مبالغات أدبية لموضوعي الإنشائي الجديد الذي أكتبه فتغلبني الحرفة أو العادة اللغوية..

لا يا صديق، صدق أو لا تصدق: إنني أنألم وأكتوي،
يخترقني ويجتاحني ذلك الإحساس الحارق المؤلم، لا، ليس
ألماً معنوياً أو نفسياً، بل في جسدي هو الألم، في جسدي
هو الألم.

.. كيف؟

لا أدري بالضبط، أو إنني أدري لكني لا أدري التعبير عما
أدريه.

أو إنني أدري التعبير، لكنني أخشى ألا تدري أنت عما أتكلم،
لكني الآن صرت أعتقد أنك ستفهم ما حصل، ربما لأنك أنت
الآن تشعر بشيء مشابه، ولو بدرجة أقل...

مرة أخرى: كيف؟

منذ البداية: كان يجب بالنسبة لي أن يحصل تقمص ما،
كان يجب أن أفهمك، ولكي أفهمك كان يجب أن أضع نفسي
مكانك، كان لا بد للتقمص أن يحصل، ولكي أستطيع أن أواصل
كان يجب أن أحس، وأن أحب..

لقد أخبرتك بذلك من قبل: إنني لفترة أسبوع أو أكثر، كنت
عاجزاً عن تقبيل أولادي، كان يقف بيني وبينهم ذلك التقمص؛
لماذا ليس عندك أولاد؟ لماذا تحرم أنت من هذه النشوة
التي أحسها عندما احتضنهم؟. وعندما أكون بين أهلي وأفراد
عائلي؟

في تجمع العيد مثلاً، كنت تبرز أمامي وأنت وحدك في
شقتك، تنتظر هاتفياً يأتي ولا يأتي، فإذا بذلك ينغص علي

التجمع، وإذا بي أنغص عليهم جميعاً هذا التجمع! وأنفرد بعدها وحدي ولا أنتظر هاتفاً يأتي ولا يأتي..

كل ما أجبرتك الظروف الحالية على الحرمان منه، صرت لا أجد له طعماً، بلى، بل صرت أجد له طعماً كالسم الزعاف أتجرعه ولا أكاد أسيغه.

.. في كل تفاصيل حياتي، كنت أجد نفسي وقد تقمصتك وتقمصت ظروفك، وكنت أجدك في كل مرة، هناك في عمق التفاصيل وعلى سطحها وبين ثناياها وخباياها..

على غرابة ذلك، لا أجد نفسي خجلاً من الاعتراف به، لو كان الصدق متوافراً في العلاقات بين البشر كما هو الزيف والرياء والمصلحة العابرة، لما كان ذلك غريباً على الإطلاق، ولكن الصدق - ويا للأسف - هو الأقل تداولاً، والأكثر ندرة والأبعد مثلاً في العلاقات الإنسانية بين البشر، وعندما يختفي الصدق ما الذي يبقى؟

عندما يحذف الصدق من الصداقة ما الذي يبقى حقاً؟.

لا شيء طبعاً، غير حرف الألف.. لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يرفع ولا ينصب.. ولا يجبر، وغير تاء مربوطة لا ترتبط حقاً بشيء..

.. وعندما يكون الله بين أعيننا، وفي أعيننا، لا مفر من الصدق، لا مهرب منه، على الرغم من أنه مؤلم وحاد وجارح، لكن، عندما تكون العلاقة في الله والله وبالله، لا مفر من الصدق، الصدق الذي هو جوهر الصداقة.. رغم أنه أكثر شيء مؤلم فيها.

فالصداقة، بعد كل شيء يا صديق، ليست قضاء الأوقات الممتعة معاً، وترجيبة الوقت وتبادل الأحاديث الطريفة والمسلية، أقول: حتى لو كان ذلك كله حلاًلاً معاً، فالصداقة -عندما تكون حقاً- شيء آخر، إنه أن تصدق لدرجة أن تشعر وأن تستشعر وأن تتقمص، إنه أن تصدق لدرجة أن تنفصم عن نفسك الأصلية، إلى نفسك الأخرى التي هي نفس صديقك، بل أن تصدق لدرجة التمازج التام في أعماقك بينك وبين نفسك الآخر..

إنه أن تكسر الحاجز، أن تقتحم العقبة في أعماقك، إنه أن تفك رقبتك من أنانيتها، إنه أن تحطم سور الصين العظيم الذي يحول بينك وبين الآخر..

والأخوة في الله هي البعد الأرقى لتلك الصداقة الصادقة الصدوقة، إنها الامتحان الأصعب والاختبار الأدق، بعيداً عن كل المجاملات الروتينية التي يتشدد بها الناس في الشوارع: يا أخي يا أخي - يقولونها وربما لا يقصدون شيئاً - لكن الأخوة شيء آخر، في الأخوة التقليدية؛ أخوك البيولوجي هو قدر لا فرار منه، بالضبط مثل الموت والحياة والأم والأب، لا خيار في هذه الأمور، كذلك إخوتك مهما حدث لن تستطيع اختيارهم، عليك التأقلم مع اختيار القدر فقط.

لكن الأخوة الأخرى؛ أنت بنفسك تخوض هذا القدر، تختاره، وتكون مسؤولاً عنه، في الأخوة البيولوجية تعاني أمك المخاض فتضع لك أحاً، لكن مع الأخوة الأخرى - الأخوة التي في الله - فإنك أنت بنفسك تعاني المخاض، وعندما يتألم هذا الذي هو أخوك، فإن (الآخ) آهة الألم ستخرج منك من

أعماقك قبل أن تخرج منه ولهذا ذاته، من أجل هذه (الآخ)
يصير أخاً لك وتصير أخاً له.

.. ومن أعماقي - عندما تقمصتك - طلعت تلك الآخة الهائلة
الرهيبة الصادرة عنك، ولأنها كانت صادقة جداً حقيقية جداً،
عالية جداً، فقد تلفت خوفاً من أن تكون آهتي قد صعقت
كل من في السماوات والأرض.

* * *

كل ما سبق سيكون بالنسبة إلى البعض هو أكثر ما سمعوه
غموضاً وغرابة، أو لعله سيكون أسخف ما سمعوه من نكت
سمجة - لا تضحك أحداً.

رغم ذلك أقول لك: لم أكن أوضح في أي وقت مضى مني
الآن.

لم أكن أكثر جدية ولا أصدق في أي وقت مني الآن.

أما هم؛ أولئك الذين لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون
فإنهم مساكين، لم يمر الصدق فيهم على علاقاتهم، لم
يقتحموا العقبة في أعماقهم، لم يكسروا ذلك الحاجز الذي
يحول بينهم وبين أنفسهم، لم تخرج (الآخ) الصادرة عن
إخوانهم من حناجرهم، فما عرفوا أخوة لهم ولا أصدقاء في
هذا العالم الموحش، إنهم مساكين! مساكين لدرجة أنهم
لم يعرفوا كم هم وحيدون ومنعزلون رغم زحام الناس
من حولهم..

مساكين أولئك؛ لم يعرفوا واحدة من متع الحياة الحقيقية

والنادرة، أقول ذلك رغم لسع الشياطين التي أحسها على ظهري والتي كان يفترض أن تكون على ظهرك أنت.

* * *

نعم يبدو أنني كعادي أكثر بعض الشيء من كل شيء.

لقد شعرت أكثر مما يجب، واستشعرت أكثر مما يجب، وأحببت وتقمصت أكثر مما يجب، وانتهيت إلى أن وجدت ذاكرتك تحتلني وتعذبني، وهذه الشياطين ولسعها الحارق على ظهري.

.. وبطريقة ما أعترف أنني كنت أحس أن شيئاً كهذا سيحصل، لذلك سددت نفسي عن التفاصيل ولم أسألك يوماً عن شيء، أنت الذي حكيت عموميات الأمر وقليلاً من التفاصيل..

لكن الذاكرة التي تتقمصني تنهض مثل تنين متعدد الرؤوس فتأخذ العموميات وتنسج التفاصيل، وتبالغ بها، وكل تفصيل أمر به يصير سوطاً تلهب به ظهري..

ذاكرتي لا تغفل شيئاً، إذا أعوزتها التفاصيل تخلقها تصنعها تؤلفها (ما الفرق حقاً؟) أيهما مؤلم أكثر؟. التفاصيل الحقيقية التي حصلت يوم كان ما كان أم التفاصيل التي تبتدعها ذاكرتي الرجيمة التي تقمصتك؟؟.

لا أدري! كلها مؤلمة، كل الشياطين على ظهري مؤلمة، كلها حارقة، وكلها تترك أثراً..

.. في يوم، في شهر، في سنة، حصل ذلك يا صديق.

ربما لن تسعفك الذاكرة لا باليوم ولا بالشهر ولكنك على الأكثر ستذكر السنة.

ما الفرق؟. في يوم ما من شهر ما في سنة ما حصل ذلك الشيء يا صديق.

.. ذلك الشيء الذي بدأت به تلك الرحلة الكثيبة التعيسة..

ربما لا تذكر اليوم ولا الشهر ولا حتى السنة، ولكن هناك، في مكان ما سجل فيه كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها حتى التفاصيل الدقيقة، الدقيقة، اللحظة الفلانية والدقيقة الفلانية من الساعة الفلانية في اليوم الفلاني، حصل ذلك الشيء.

.. ولأني أتمصك كما يجب، فإني أصرخ، بدلاً عنك: ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها؟

.. وعندما يضعونه في شمالي بدلاً عن شمالك أحاول عبثاً أن أخفيه وراء ظهري بدلاً عن ظهرك، فرقاً جزعاً مما أعرف أنه فيه..

.. وفي ذلك الكتاب سيكون هناك التاريخ المحدد لذلك الشيء الذي حدث لك، وحدث بك، وحدث معك، والذي بدأت به رحلة السقوط تلك.

في يوم، في شهر، في سنة، لا اعرف بالتحديد أياً منهم، بدأ ذلك السقوط كله..

في يوم، في شهر، في سنة، اقتحمت العقبة الفطرية والحاجز المنيع الموجود في أعماق كل منا وبدأت بذلك السقوط الذي

سيستغرق من عمرك عمراً.

في يوم، في شهر، في سنة، حصل في حياتك ذلك الحادث
الحزين: حصلت معصيتك الأولى.

* * *

في حياة كل عاص معصية أولى هي الباب الذي فتح أمامه
كل المعاصي التالية.

المعصية الأولى هي المعركة الأهم وربما الأكثر حسماً في
حياة كل منا.

لا يعني ذلك قطعاً أن نتيجتها نهائية وقاطعة، لكن يعني
أن الأمر يكون أصعب دوماً بعد أن يحصل السقوط الأول،
وسيتطلب الأمر من أجل إغلاق الباب جهداً أكبر ومجاهدة
أعظم..

المعصية الأولى هي ذلك المنعطف الذي يحصل في حياتك،
الخطيئة الأولى هي ذلك المطب (الفخ)، الباب المفتوح على
هاوية عميقة، وحده الله في عليائه يعلم قرارها.

المعصية الأولى هي المعصية الأصلية، الخطيئة الأصلية
التي تسيطر علينا وتحرك مسار حياتنا، لكنها لا تكون كذلك
إلا بعد أن نقترفها، إنها لا تكون أصلية، إلا بعد أن تكون
أولى، نقترفها أولاً ثم نصير جزءاً منك وتسير معك في حياتك،
أحياناً تسير حياتك..

المعصية الأولى هي تلك التجربة التي سنظل ننكرها طيلة
حياتنا، ربما سنحاول التنويع في معاصينا لكن التجربة الأولى

ستظل تدمغنا وتصمنا بطريقة أو بأخرى...

.. لو أننا راقبنا معاصينا التي استمررنا عليها (وما من أحد منا يخلو من المعاصي) لوجدنا أن طابع المعصية الأولى وتفاصيلها ونكهتها ظلت تطبع كل معاصينا التالية..

مع العمر، وبعد السنوات يظل شبح المعصية الأولى مطلاً كخيال مآتة في الحقل الخرب شاهداً بارزاً شاخصاً على تلك التجربة التي تستمر وتستمر وتدخل بالتدريج لتصير جزءاً أصيلاً من تركيب الشخصية..

.. ويظل الزوج بعدما تاب وأناب، أو على الأقل لبس قناع التوبة، يظل يريد من زوجته الفاضلة أن تكون كذلك في كل مكان إلا في السرير؛ حيث يريد لها أن تنافس أولئك اللواتي احترفن إثارته في تجاربه الأولى..

.. على سرير الزوجية تظل المعصية الأولى وتفاصيلها وثناً بارزاً في ذهن الزوج: ها هو يقارن، ها هو يتذكر، ها هو يطالب، ها هو يتأفف، ها هو يتشاجر، ها هي المعصية الأولى تتصر رغم الزمن، ورغم التوبة تظل المعصية الأولى هناك في الأعماق تمارس دوراً قيادياً لا يتخيله أحد..

.. وتظل المعصية الأولى، ذلك السقوط الأول البعيد في حياة كل منا باباً قد يفتح الأبواب نحو المعاصي المتكررة والمستمرة، ومطباً قد يجرنا نحو الفخ الأعماق والأكثر سقوطاً..

.. وتظل المعصية الأولى هناك في الأعماق السحيقة، في الذاكرة البعيدة، في الأصقاع النائية..

.. وتظل كل نفس بما اقترفت من معصية أولى رهينة.

* * *

بين الخطأ والصواب خيط قد يكون رفيعاً لكنه خط فاصل
كذلك الخيط الذي يفصل بين الليل والفجر، قد يؤدي بحياة
متجاوزه.. قد يكون مميتاً.

بين الحلال والحرام حد، بين البكارة وانتفائها غشاء، محض
غشاء دموي لكن معانيه مهمة وآثار زواله قد تكون مدمرة..

بين الخطيئة والامتناع عنها حاجز، عقبة؛ هي في جوهرها
ذلك الفرق بين الإنسان والبهيمة..

.. وبين أن تكون إنساناً وتظل إنساناً، وبين أن تكون بهيمة
كالأنعام، بل أضل سبيلاً، اختيار بسيط (واضح): هل
تستسلم لغريزتك كما الأنعام والبهائم والقطط والكلاب، أم
إنك تقف كالسد الصامد أمامها لتروضها وتطوعها وتصير أمةً
لك بدل أن تكون عبداً لها؟.

* * *

..هذه الخيوط الرفيعة، والحدود، والفواصل، والخطوط
الواضحة، والحواجز، والعقبات، والاختيارات المصيرية عند
مفترق الطرق كلها للأسف -أحياناً- لا تكون كافية لبعض الناس
الذين يتجاوزون الخيط الفاصل والحد القاتل والغشاء الزائل
ويلجئون من ذلك الباب الذي يفتح لهم هوة السقوط..
فيسقطون.. ويسقطون.. ويسقطون..

في كل يوم، من كل شهر، كل سنة، يحدث ذلك وللأسف،
بل الملايين للمرة الأولى..

في كل يوم، من كل شهر، من كل سنة، هناك الملايين
الذين يسقطون للمرة الأولى في حياتهم، فيقتربون خطيئتهم
الأولى، معصيتهم الأولى، فيظلون حبيسين داخلها، بما كسبوا
مرتهنين..

.. ولكن رغم ان ذلك يحدث كل يوم، إلا أنني أجدني وذاكرتي
الرجيمة تلسعني بالسياط على ظهري، أتجه نحو يوم ما، من
شهر ما، في سنة محددة ما..

لا أعرف اليوم، ولا الشهر، ولست متأكداً من السنة..

لكن ذلك كله موجود في السجلات فوق... يوم ما، من
شهر ما، في سنة ما، من دون كل الأيام، من دون كل الشهور،
من دون كل السنين، يوم واحد من شهر معين في سنة ما
تضرب السياط على ظهري..

إنه يوم سقوطك الأول والكبير... يا صديق..

* * *

عبر السنين وكلما قلبت في دفاتر ذكرياتي وأوراق، كنت أجد
في عقد الثمانينات من حياتي أحلى الذكريات وأرقها وأعذبها..
هناك كانت براءتي، هناك كان حسن ظني وآمالي الكبيرة
وأحلامي الصغيرة.

هناك كان الأصدقاء الذين ما ظننا يوماً أنهم سيذهبون،
وأنهم سيتغيرون، ثم أنهم سينسون..

هناك كان يبدو العالم واضحاً جداً مثل صباح يوم

شمس، أو مثل فيلم رسوم متحركة للأطفال، الشر فيه واضح ويرتدي السواد، والخير فيه واضح ويرتدي البياض..

لم يكن هناك شيء غامض، حتى الأسئلة الكبيرة كانت تسلينا أكثر مما كانت تحيرنا، كنا نزجي الوقت ونحن نثرثر عن الوجود وغوامضه متقمصين حيرة لا تخصصنا ومتلبسين أدواراً تسلينا ولكن لا تكاد تعيننا..

.. كل شيء كان بسيطاً واضحاً ونقياً.

.. كل شيء كان شديد الوضوح والسطوع، الخير، الشر، الأصدقاء ومراهقتهم وصحبتهم وبراءتهم..

حتى ملامحهم كانت أشد وضوحاً..

تلك كانت الثمانينات، وعبر السنين كلما خنقني العبرات كنت التجأ إلى ذاكرتي وأقلب في أوراقى فأجد في ذكريات الصداقة والبراءة والوضوح المطلق بلسماً وقتياً عابراً..

أقول: تلك كانت الثمانينات إلى أن تورطت بالسرققة الوحيدة التي لا يعاقب عليها قانون، عندما تقمصت ذاكرتك..

اليوم احترقت ذاكرتي، وضاعت أوراقى، ولم يعد لي ذكريات في ذاكرتي، لم يعد عندي ذاكرة..

من عقد الثمانينات كله لا أتذكر سوى يوم واحد لم أعشه، لكني أذكره مثل أخطبوط جهنمي يلتهم ذكرياتي؛ يوم واحد، من عقد كامل، يوم واحد من شهر ما، في سنة ما، من عقد كامل..

إنه اليوم الذي سقطت فيه للمرة الأولى..
يوم ما في عقد الثمانينات.

* * *

ثم كانت التسعينيات، وفيها عرفت الحياة الحقيقية،
ودخلت معتركها وتخرجت من مدرستها، وسجلت ذاكرتي
القحط كما الخصب، والغدر كما الوفاء، الخوف كما الأمان،
والشك كما الإيمان..

.. وفي التسعينيات عرفت أن الحقيقة لا تختص بلون واحد،
وأن الشر قد يتخفى خلف أكثر الألوان نقاء، وأن الخير قد
يسكن خلف كل ألوان الطيف..

.. وفي التسعينيات عرف ظهري الطعنات، وعرفت أنه كلما
زادت الضربات الآتية من الخلف اندفعت أنا إلى الأمام،
وفهمت أن الضربات التي لا تقتلني سوف تقويني..

وفي التسعينيات تدرجت على سلالم الشك واليقين،
ولمحت اليقين مرة، وطاردته مرات وتمسكت به وعرفته
وعرفني، واخترقته واخترقني..

.. لكن من ذلك العقد الحافل كله لا أذكر اليوم سوى شيء
واحد يجرحني ويحز في رقبتي من الوتين. لقد كان عقداً آخر
لم تفعل فيه سوى أنك تابعت السقوط؛ ذلك الذي بدأت في
يوم ما، من شهر ما، في سنة ما، قبلها في الثمانينات..

عقد كامل آخر تبدل فيه العالم وتغيرت خرائطه واندثرت
فيه قوى عظمى وحلت محلها أخرى، وتبدل الناس، وانهارت
عملات ونهضت أخرى..

.. عقد كامل مر عليك دون أن تتبدل، لقد قضيت
التسعينيات كلها وأنت ماضٍ في ذلك السقوط المعتم إلى بئر
جاف لا قرارة له..

عشر سنوات أخرى مرت عليك أيها الصديق وأنت تسقط..
وتسقط.. وتسقط..

إنه شبابك الذي أفنيت زهرته، وعمرك الذي أتلفته، ووقتكَ
الذي أسرفته في اللهو العابث الماجن.

.. ورغم أن ذلك استمر حوالى 17 عاماً من عمرك وهذا
كثير - كم 17 عاماً لدينا في العمر كله؟. إلا أنه بدأ بالتحديد
من يوم واحد، في شهر واحد، من سنة معينة..

يوم واحد فتح لك باب السقوط لسبعة عشر عاماً..

* * *

.. ولماذا يعذبني، وبالسياط على ظهري يجلدني وهو يحدث
كل يوم.

ففي كل يوم، من كل شهر، من كل سنة هناك ناس
يسقطون، يفتحون باب الهاوية للمرة الأولى ويرمون بأنفسهم
في تهلكة قد تستهلك أعمارهم كلها..

.. في كل يوم يحدث ذلك، الآن في هذه اللحظة، بالتأكيد
يحدث ذلك، لكن يومك وسقوطك هو الذي يؤذيني من دون
كل الأيام وكل السقطات.

-لماذا ترى يا صديق؟.

ربما لأنني عرفت نقاء سريرتك وصفاء فطرتك وذلك الصدق
النادر الذي يميزك..

وربما لأنني عندما احتككت بمعدنك انطلقت شرارة مضيئة
كشفت لي عن أصالته، رغم أنني احتككت به بعد 17 عاما
طويلة من السقوط، وكان لا يزال أصيلاً مضيئاً رغم كل ما مر
عليه من سقوط ومعاص وكبائر وعممة..

.. وربما لأن سقوطك يا صديق في ذلك اليوم الحزين
الغابر هو رمز لسقوط كل الأشياء النبيلة الأصيلة في حياتنا،
سقوط يثبت أن الصحيح لا يصح دائماً بل قد يغلط ويخوض
ويتوغل في الغلط ويموت وهو غلطان..

سقوطك يذكر بأن الناس الطيبين قد يضلون طريقهم في
هذه الحياة حتى تجدهم فجأة في جهنم التي ستظل تقول
هل من مزيد؟..

سقوطك يذكرني بأن جهنم ستضم في النهاية جداً الصالح
والطالح، ما دام الصالح لم يعرف كيف يحافظ على صلاحه،
وهو أمر يخيفني شخصياً..

سقوطك يذكرني بالسقوط الأول المخيف الذي أنزلنا من
الجنة إلى الأرض، عندما سقط أبونا آدم وكان ما كان..

.. وكان آدم إنساناً حقاً؛ معدنه أصيل وفطرته نقية وسريته
صافية، لكنه سقط، وتلك كانت الخطوط الأولى لسيناريو
السقوط الذي سيتكرر فيما بعد لملايين المرات عبر آلاف
السنين..

.. والمؤلم ليس أن البشر يسقطون، بل أنه حتى الجيدون منهم، أولئك الأنقياء والصادقين يسقطون..

.. والأكثر إيلاماً أنهم قد يسقطون، ويسقطون، ويستمرون بالسقوط ولا يقومون من سقطتهم، وينتهي بهم المطاف إلى قعر جهنم..

نعم ليس المؤلم أن البشر يسقطون، فهذا طبيعي ومتوقع، بل إنه جزء من طبيعة المسألة؛ لا بد أن يكون هناك من يسقط ليصير حطباً ووقوداً في جهنم، هناك ناس في أعماقهم الشر حسم المسألة وتغلب على الخير إلى الأبد.. نعم يوجد ناس هم كالذباب، بل هم أضل سبيلاً؛ إنهم صم بكم لا يعقلون..

إنهم أولئك الذين (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) [الأنفال 23].

لم يعلم الله أن فيهم خيراً، الشر حسم المسألة لذلك لم يسمعهم كلماته، لم يعرض عليهم آياته، لا فائدة ترجى من ذلك وحتى لو حدث وسمعوا (لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) الأمر محسوم سيستهزئون أو سيستنكرون وسيلقون بنكتة سخيفة، أو تعليق سمج، وسيعرضون ويواصلون سقوطهم؛ إنهم حطب جهنم، لا فائدة ولا أمل في تغيير هويتهم..

حقيقة لن تتأسف ولن تتألم عليهم، إن سقوطهم جزء من العدالة التي تلف هذا الكون، لا بد أن يسقط في جهنم أحد..

لكن المؤلم والمؤسف والمحزن أن هؤلاء عندما يسقطون

يجرون معهم آخرين، أقراناً وأصدقاء وأقارب يسقطون أيضاً رغم أن معادنتهم أصيلة مختلفة ونقية عن حطب جهنم، لكنهم غافلون، ومن غفلتهم سينزلقون ويسقطون... والمؤلم أن أغلبية الساقطين يكونون من هؤلاء الساقطين بالاستعاضة، الذين تعلقوا بغفلتهم وتزحلقوا بها إلى أن سقطوا في أسفل سافلين..

رغم أنهم أصلاً لم يكونوا من السافلين..

.. ومن هؤلاء كنت أنت يا صديق وكان سقوطك المؤلم المظلم المريع..

سيناريو السقوط الأول في يوم، في شهر، في سنة، تفاصيله تهاجمني بلا هوادة..

ورغم أن فعلة السقوط يفترض أن تكون مثيرة لو كانت جزءاً من فيلم أو رواية، إلا أنني أتأمل السيناريو بحزن وبألم.

رغم الجنس، لا إثارة، بل حزن شفاف وغامض يلف ويغلف المشهد بأكمله..

ولو أنك تذكرت السقوط والضياع والتخبط والقذارة التي تلت ذلك المشهد كله لما شعرت بإثارة، فقط بحزن، بندم فقط، وربما سيثير المشهد فيك الغثيان كما يثير في داخلي الآن.

بدأ المشهد قبل أن يبدأ بفترة، وكل هذه المشاهد تبدأ في الواقع قبل أن تبدأ... وهذه البداية في الحقيقة هي أكثر تفاصيل السيناريو إيلاماً وإثارة للحزن.

.. بدأ المشهد يا صديق من تلك الحقيقة الحزينة المفجعة
التي انزلت إليها عندما انقطعت عن الصلاة..

.. لم يعلمك أحد في بيتكم الصلاة، كما قلت: إنك لا تكاد
تذكر حتى من علمك الصلاة، ولم يكونوا في البيت عندكم
يعرفون حتى اتجاه القبلة كما ذكرت لي، وعندما كان يأتي أحد
لزيارتكم ويريد أن يصلي كانوا ينادونك أنت لتوليه القبلة.

.. صدق أو لا تصدق، لم يعلمك أحد: إنها فطرتك، إنها
سريرتك النقية، إنه معدنك الأصيل الذي راهنت عليه
يوم كان ما كان..

صدق أو لا تصدق، لم يعلمك أحد، لكن في داخلك كانت
لا تزال نفخة الروح الإلهية التي تتوارثها من عهد آدم، لم
تكن قد دفنت تحت ركام الشهوات والمعاصي والذنوب..

كنت لا تزال قريباً منه لذلك لم يعلمك أحد الصلاة، كنت
تصلي دون أن يقول لك أحد خارج نفسك: صَلِّ..

.. لكن ذلك الزمان يبدو بعيداً جداً الآن، وفي لحظة ما
تقدمت أنك لتقطع ذلك كله وتنتهيه.

في لحظة سهو، في لحظة غفلة، في لحظة ضعف، حصل ما
كان المقدمة الطبيعية لمشهد السقوط الأول.

في لحظة تمكن فيها الشيطان منك، شيطان الغفلة
والتفاصيل الصغيرة بدأ ذلك السيناريو كثير التكرار..

من حقيقة أن صلاتك وقتها لم تترجم عملياً لتصير انتماء
للجماعة، لصلاة جماعة تشكل الإطار الذي يكون ويحمي أفرادها..

ظلت صلاتك فردية منفردة، وكان ذلك هو الخطأ الأول الذي مكن إبليس من أن يجرك الى ما جرك إليه فيما بعد، إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية وكنت يا صديق خروفاً طيباً وأصيلاً، ولكنك لم تنضم للقطيع، وهذا ما سهل على الذئب أن يأخذك ذبيحة عيد، والتهمك كما يلتهم كل الغنم القاصية عن قطيعها..

.. في لحظة سهو، لحظة غفلة، لحظة ضعف، لحظة عزلة، حدث ذلك: انقطعت عن الصلاة..

وكان إبليس يتربص بك يا صديق..

* * *

تذكر ولا بد تلك الصورة المفجعة التي استلمناها معاً عبر البريد الإلكتروني: صورة ذلك الطفل السوداني الجائع، بل المتضور جوعاً الذي يزحف على الأرض لأنه لا يقدر على الوقوف على قدميه باتجاه مخيم اللاجئين والذي لا يزال أمامه كيلومتر واحد من الزحف ليصل إليه..

وفي الصورة، على بعد أمتار من الطفل يقف ذلك الطائر الجارح (النسر أو الصقر لم أعد أدري) ينتظر أن يموت الطفل حتى ينقض عليه، لأنه لا يفترس الأحياء بل يأكل الجيف..

هزتكم الصورة وهزتني ولا بد، وهزنا أكثر التعليق المصاحب لها والذي يشير إلى أن المصور الغربي الذي التقط الصورة انتحر متأثراً بما شاهده في إفريقيا من مآسٍ..

رغم ذلك أرى الصورة تهزني أكثر وتذكرني بمشهد آخر

يتكرر كل يوم ولا ينتحر أحد من أجله، رغم أنه مأساوي
أيضاً بطريقة أو بأخرى..

.. انظر إلى المشهد مرة أخرى، الفريسة تزحف وتكاد تموت،
لكن الطائر الكاسر لا يهاجمها إلا بعد أن تموت. يتربص بها
حتى تموت، بعدها ينقض على الجثة (الجيفة) ليلتهمها، إنها
أخلاق الكواسر!.

ذلك الطفل السوداني والذي لعله لم يكن طفلاً جداً
بكل المعاني، أولاً لأنه لم يتمتع بطفولته، وثانياً لأنه ربما
كان قد تجاوز عمر الطفولة، لكن ظل نموه معوقاً بسبب
الجوع والأمراض، ذلك الطفل الأسود والذي ربما مات بعد
دقائق من التقاط الصورة وخلال ساعات كان قد انتهى تماماً
في بطون الكواسر، ذلك الطفل يذكرني بآخرين، ليسوا سوداً
بالضبط وليسوا أمواتاً (بيولوجياً على الأقل) ولعلهم لم
يتضوروا جوعاً قط، ولم يشهدهم نسر كاسر قط، لكنهم
أيضاً بطريقة ما يشبهون ذلك الطفل في رحلة زحفه المميتة
إلى مخيم اللاجئين..

.. إنهم أولئك الآلاف (بل الملايين) من البشر الذين يصلون
ولكنهم لا يقيمون الصلاة، إنهم يصلون، نعم ولكن كما
تدري -وكما ربما الملايين- صلاتهم متقطعة أحياناً، أو متأخرة
دوماً، أو محض حركات روتينية في أحسن الأحوال، ودوماً
هناك ذاك الطابع الفردي لهذه الصلاة، إنها بلا جماعة، بلا
جامع، بلا انتماء، بلا قطيع يحمي الغنمة القاصية، وهذا
يفسر كل ما سيحدث لاحقاً.

إنهم ليسوا بالضبط على الطريق الخطأ، لكن مسيرهم

عليه ليس مستقيماً، إنهم بالضبط يزحفون مثل ذلك الطفل الذي يحتضر زحفاً وهو يتوجه الى حيث يجد لقمة واحدة تنقذه من الموت..

إنهم يزحفون ببطء وبتعثر مادامت صلتهم بالله - صلاتهم - لا تقيمهم ولا تقويهم، خليطاً بين السهو والغفلة والعزلة..

انهم يزحفون. بيولوجياً هم أحياء، لم تمت قلوبهم بعد لكنها ضعيفة تنبض ببطء، دقائقها تتباعد وتتباطأ.

.. ويقف الشيطان الكاسر الذي لا يهاجم إلا الموتي ولا يأكل إلا من الجيف، ينتظر موتهم الحقيقي لا البيولوجي ينتظر أن ينقطعوا عن الصلاة ليهاجم ويفترس..

نعم... دوماً هناك ذلك الجدل حول ماهية الموت الطبي، هل هو السكتة الدماغية أم السكتة القلبية، لكن معنى الموت الحقيقي هنا يختلف؛ إنه السكتة الروحية، إنه أن ينقطع قلبك لا عن التقلص والضخ، بل عن الاتصال بربه أن يكف عن الاتصال بخالقه..

المتوفى حقاً ليسوا أولئك الذين نشيعهم ونسير في جنازاتهم ونصلي عليهم ثم نهيل عليهم التراب، لكن المتوفى هم أولئك الذين لا يصلون ويدفنون أنفسهم تحت التفاصيل الصغيرة واللهو والعبث والمعاصي والأعذار والحجج، المتوفى هم أولئك الذين يسمعون الأذان خمس مرات في اليوم ولكنهم يا للأسف يسدون ويصدون ويتمنعون.

إنهم بيولوجياً يعيشون لكنهم (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) [النحل: 16/21].

أترى الصورة الآن؟. إنها ليست الأزمة في إفريقية، إنها أزمة كل زمان ومكان.

إنه ليس الطفل المحتضر زحفاً، إنه كل الناس الذين يصلون ثم ينتحرون، ينقطعون عن الصلاة..

إنه ليس الطائر الكاسر المتربص بفريسة يصر أن تكون جيفة، بل هو إبليس الذي لا ينقض إلا على قلب ميت، قلب لا يصلي.

(زووم) على الصورة اكثر.

أفهمت؟.

* * *

.. وعندما حدث ذلك كان منطقياً أن تحدث أشياء أخرى، لقد كان ذلك وعداً مفعولاً.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف:36) معادلة محسومة، وعداً مفعولاً، من يتعام عن ذكر الله، من يقطع صلته بالله سبحانه وتعالى، من يقفل على قلبه ويرم بالمفتاح في بئر الغفلة والمعاصي والذنوب فلا بد أن ينقض عليه ذلك الشيطان. واللفظ في الآية موجه مثل رصاصة تخترق عظامك وتتسظى الى آلاف القطع في داخلها ف(نُقَيِّضْ) هنا تأتي من انقضاض - القيض - الطائر الجارح الكاسر لا غيره على البيض ليختطفه، والصورة القرآنية هنا مشابهة لدرجة التطابق مع صورة الطفل السوداني السابقة، الشيطان ينقض عليه، بل على كل من يغلق عينيه

وقلبه عن الله، فإذا به ملازم له كل ساعة، كل لحظة، إذا به قرينه..

إنها المعادلة المحسومة، متوازنة الأطراف، إذا أصابك ذلك العشو الذي يعميك عن الله المائل في كل ذرة من ذرات الكون، إذا أخرجت الله من قلبك وذكرك وذاكرتك وضميرك لابد أن (ينقض) عليك ذلك الشيطان القرين.. لابد أن تسقط له فريسة..

إنها قضية محسومة، لا نقاش في هذا، لا جدال، لا خروج عن القاعدة..

.. وهل تريد (زووم) على الصورة أكثر..

نعم... لكن الصورة ستفوت قليلاً من الزمن، لن ترى ماذا سيحصل فوراً بعد الانقضاء المحتوم المحسوم، ولكن ستنتقلك إلى موقف آخر (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) [الزخرف 43/38].

نعم سيأتي مثل هذا الوقت والموقف، وستتمنى وستنتمى جميعاً لو أن بيننا وبين هؤلاء الأقران بعداً هائلاً، ليس بالضبط بقدر المسافة بيننا وبين الشمس بل ضعفها، بعد المشرقين.

نحن الذين كنا نلازمهم ولا يمضي شروق وغروب دون أن نلتقي بهم وندخل بيوتهم ويدخلون بيوتنا، وتجمعنا بهم العشرة؛ الملح والزاد والذكريات..

نحن الذين كنا نعهدهم أصدقاء العمر، سيأتي علينا حين

من الدهر نتمنى لو أن بيننا وبينهم بعد المشرقين.

أليست هذه نذالة منا؟. ربما.. لكن الأسوء من كوننا أنذالاً
أن أمانيتنا هذه ستأتي متأخرة قليلاً (ليس قليلاً جداً بعد كل
شيء) لكن بالتأكيد بعد فوات الآوان.

وسياأتي الجواب حاسماً قاطعاً (وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ
ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) [الزخرف: 43/39].

و(زووم) على الصورة اكثر.

* * *

للسيطان ألف وجه، ولا واحد منها يمتلك قرنين في الرأس،
ولحية شريرة مديبة كتلك التي نراها في الصور التقليدية..

.. ولا واحد منها يبدو شيطانياً جداً، في الحقيقة، معظمها
ستكون أليفة ومألوفة، ربما محبوبة وجذابة، بل إن بعضها
ستحمل ملامح ملائكية في منتهى البراءة، منتهى النقاء.

بعض هذه الوجوه ستكون في منتهى الجمال والوسامة، لن
تصدق قط أن الله خلقها وأبدع في صنعها ثم يمكن أن يرمي
بها في جهنم..

.. وبعض هذه الوجوه ستكون ودودة، قريبة، شاركتك بعض
أحزانك، وربتت أحياناً على كتفك، وأعطتك الكتف لتبكي عليه.

للسيطان ألف وجه، ولا واحد منها وجه الشيطان!.

.. ولو أنك أردت أن ترى الشيطان فاذهب إلى (ألبوماتك)
القديمة وقلب في صورها وفي أوراق ذكرياتك وذاكرتك وصدق

في ذلك كله بامعان وتركيز.

.. وتأمل وجوه الأصحاب والخلان والأقران وحاول أن تتذكر من منهم جرك معه إلى معصيتك الاولى؟ من منهم أخذك أسفل سافلين؟. من منهم سحبك من عنقك وألقى بك في تلك الهاوية التي أكلت من عمرك ربما رבעه؟.

تأمل في الصور وتذكر، قلب أوراق (الألبوم) ودفاتر الذكريات وركز.

حديق في وجوههم، ولا واحد منهم يمتلك قرنين (ظاهرين على الأقل)، ولا واحد منهم يمتلك ملامح شريرة كتلك التي تظهر في أفلام الرسوم المتحركة، ولا واحد منهم يمتلك ذيلًا طويلًا عند مؤخرته ولكن رغم ذلك فالشيطان يمتلك ألف وجه وأكثر! ولا واحد منها يكون شيطانيًا..

* * *

.. أقول لك: اذهب الآن وحالاً وابحث عن شرائط (النيجاتيف) لتلك الصور.

لا تقل أنك أضعتها أو أتلقتها، ابحث عنها في الأدراج الملانة، التي تعودت أن ترمي فيها ما لا تريد أن ترميه في سلة المهملات، في الصناديق العتيقة، بين الأغراض والهدايا المنسية، في العلب المغلقة المغلفة بالنسيان والعتث والغبار، ابحث هناك، لابد أنك ستجد واحداً منها على الأقل، أقول: خذه وانظر إليه باتجاه الضوء الساطع، ظهره ببصيرتك، انظر إليه من خلالها.

سترى فجأة وكما لو كان سحراً أن الأبيض والأسود في
(النيجاتييف) يشكلان شيئاً آخر، تكويناً آخر غير تلك الصور،
لن ترى خيالات صور العبث واللغو مع الأصدقاء والخلان،
بل سيبدو كما لو أن هناك صورة أخرى تحتها مطبوعة
بحبر سري غامض، ركز أكثر: ستري هناك تكراراً رهيباً لصورة
واحدة تملأ الشريط كله..

إنها صورة ذلك الطفل السوداني المحتضر زحفاً باتجاه
لقمة طعام، وعلى بعد أمتار ذلك النسر المتربص الذي
لا يأكل إلا الموتى..

* * *

(زوم) على الصورة أكثر، لقد كانوا يتربصون بك يا
صديق..

كل ذلك كان مقدمة تمهيدية لمشهد السقوط الأول في
السيناريو..

.. الحلقة الأولى كانت انقطاعك الحزين والمفجع عن الصلاة..

.. الحلقة الثانية المتصلة والناجمة عن الأولى هي انقضاظهم
عليك كما ينقض النسر الجارح على الفريسة الميتة..

.. والآن لقد وصلنا للحلقة الثالثة، للمشهد الأهم في
سيناريو السقوط..

للمعصية الأولى التي ستسهل كل المعاصي التالية، للسقطة
الأولى التي ستفتح باب السقوط نحو الهاوية..

لقد حاولت تأخير ذلك، بل حاولت - وأنا أعلم مسبقاً
فشل المحاولة- أن أؤجل المشهد أو ألغيه، وكما يخادع
المرضى أطباء الأسنان فيفتعلون الأحاديث قبل أن يبدأ
الطبيب بعمله من أجل كسب الوقت، كنت أحاول أن ألتف
وأناور وأؤخر المشهد..

لكن لا مفر.

مشهد سقوطك الأول يتربص بك يا صديق.

* * *

مشهد السقوط الأول، (كلاكيت) أول مرة.

السريـر يبدو مرتباً لكن لدي إحساس بأنه غير نظيف، أقلب
في الملاءات وألاحظ أنها ليست نظيفة، يبدو ذلك منطقياً
جداً.

الأثاث لا بأس به، لكنه يعطي إحساساً عاماً بالرخـص
ينسجم مع بقية تفاصيل المشهد.

هناك مسجل في ركن ما، وشريط يدور باستمرار ويطلق
أغنية ثمانينية تبدو الآن في غاية الركاكة والسخف.

المروحة في السقف تدور ببطء وتصدر صريراً مزعجاً يحفر
في أعصابي.

.. على المنضدة المواجهة للمرأة توجد باقة ورد صناعية في
غاية البشاعة وعدم الانسجام، وتذكر أيضاً بالرخـص وبموت
الأشياء الجميلة في هذا العالم.

.. الحائط شبه عار إلا من بعض الصور المتناثرة والتي لا معنى لها ولا رابط بينها على الإطلاق، مثل كل العلاقات العابرة التي لا معنى لها والتي تحدث في غرف كهذه وعلى أسرة كهذه..

.. وعلى الحائط أيضاً عنكبوت يبدو أكثر إنسانية وأقل تفاهة من كل البشر الذين يرتادون هذه الغرفة..

قرب بيت العنكبوت ساعة حائط تصدر تكات منخفضة وخافتة، لا عجب أبداً أنها خافتة، ليس من مصلحة أحد هنا أن يذكره شيء بعمره الذي يتسلل من بين أصابعه في غرف كهذه، على أسرة كهذه..

.. الباب مغلق بإحكام.

والستائر مسدلة.

جو الغرفة خائق، لو أنهم يفتحون الشبابيك على الأقل، لكن لا، لا يمكن لذلك أن يحدث، الستائر مسدلة تماماً؛ يجب أن يحدث ذلك خلف ستائر مسدلة وأبواب مغلقة.

فجأة أتبه لسخرية ذلك، ياللتناقض! مم يخافون؟ ألم يعلموا أن الله يسمع ويرى؟. رغم الستائر، رغم الأبواب.

قبل أن يبدأ الـ (Action) أصرخ (Stop) وأوقف المشهد.

وأوجه إليك بغضب، أهرك بعنف من قميصك الداخلي الذي بقيت به، أصرخ: ألم تعلم بأنه يسمع ويرى؟.

لقد فشل المشهد، سنضطر الآن إلى إعادته.

مشهد السقوط الأول، (كلايت) ثاني مرة.

مفردات المشهد الأول نفسها، لكن الرائحة أصبحت لا تطاق، لا أدري كيف زادت، لا أعرف من أين تنبعث، ألاحظ على المنضدة معطر جو رخيصاً كان منتشرًا في الثمانينات، أرش رذاذه محاولاً تخفيف الرائحة، لكن اختلاط الروائح يجعلها أكثر من أن تحتمل، أشعر بالغثيان وبرغبة ملحة في التقيؤ، أحاول أن أتذكر ماذا أكلت في الليلة السابقة، أتبته الى وجود بقايا طعام على المنضدة، كباب وبعض الخضراوات والبصل، تزيد الرائحة نفاذية عندما أتبته لذلك، أتذكر بحزن لا حدود له أنه يتودد إليهم بالنعم بينما يتبغضون إليه بالمعاصي، بقايا الكباب والخضراوات ملفوفة بإهمال بورق جريدة، أتأمل في الجريدة؛ هناك أخبار عن المعارك على الجبهة، وفي الصفحة المقابلة كانت هناك صور من المعارك تعرض الجثث المتفسخة والمتروكة على أرض المعركة..

تختلط الروائح عندي، رائحة الغرفة الخائقة مع رائحة المعطر الرخيص ورائحة كباب السوق والبصل مع رائحة الجثث المتفسخة على أرض المعركة..

ورائحة العلاقات العابرة المنبعثة من الأجساد الرخيصة التي ترتاد غرفاً كهذه..

أسدُ أنفي بقوة، لكن لا شيء على ما يبدو ينفع الغثيان. القيء يكاد يصل إلى بلعومي..

فكرة أنه يتودد إليهم بالنعم وأنهم يتبغضون إليه بالمعاصي تكاد تخنقني.

فجأة أتذكر، إنها ربما تكون رائحة الجيف التي يفترسها ذلك الكاسر الذي لا يفترس إلا الموتى، وأفكر أنهم على ما يبدو فعلاً أموات غير أحياء ولكن لا يشعرون، وأن رائحتهم التي تخنقني والتي لا يشمون ولا يستنشقون هي رائحة جيف الموتى الذين هم أحياء بيولوجيا.

.. المشهد يكاد يبدأ لكنني أفقد سيطرتي لم أعد أستطيع، ها أنا أتقيأ في قلب المشهد وأفسده مرة ثانية.

* * *

مشهد السقوط الأول، (كلاكيث) مرة ثالثة.

أسمع أصواتاً غريبة، ألتفت ولا أجد مصدرها، يخيل إلي أنها ربما في خلفية ذهني أو ربما في خلفية ذهنك.

أصوات غريبة مختلطة تعلو بالتدريج وتصير أزيزاً كأزيز النحل.

في الأزيز أميز فحيحاً كفحيح الأفعى، أميز سُمّاً قاتلاً في معسول الكلام.

أميز كيف شجعوك وجروك إلى أن أوصولك إلى هنا.

الأزيز يعلو، الكلام مسموم وقاتل مثل قرصات النحل، الفحيح واضح: كن رجلاً وافعلها، إنها مرته الأولى، هل يعقل ذلك، يا أخي أخزيتنا، أرنا فحولتك إذن.

الأزيز يعلو أكثر، الفحيح يصير فحاً يحاصرك من كل الجهات، أراك يا مسكين لا تتبته بل تشاركهم الكلام والتعليق

الفاحش، أراك أيضاً تئز وتفتح مثلهم، يا مسكين لو لم أكن قد عرفتكَ لظننتكَ منهم، من أولئك الذين لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون، يا مسكين لقد تربصوا بك ونصبوا لك فخاً بإحكام وإتقان.

.. وأراك يا مسكين لاهياً عابثاً لا تدري بأي هاية سيسقط بك الفخ..

لقد أخذوك فغلوك ثم الجحيم أوصلوك ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً أسلكوك.

إنك كنت تصلي لله العظيم، لكنك - يا حسرة عليك- انقطعت وتركتهم يسقطونك ويغلونك..

نعم أراك يا مسكين تسقط في الفخ ولا أسمع صيحة استغاثة.

أو لعلك أطلقت واحدة ولكن هذا الفحيح وهذا الأزيز الذي يعلو أكثر فأكثر منعني من أن أسمعها..

الأزيز يعلو، يكاد يصم أذني، أتعجب من أين يأتي؟ إنه يشبه أزيز المرجل، هل من أحد هنا يغلي الماء؟، إذا كان يقصد التعقيم فسيحتاج حتماً إلى الكثير من الماء المغلي،

أم إنهم يغلون الماء من أجل التعذيب، من أجل أن يرمون أبطال المشهد كلهم فيه (كما سيحدث لاحقاً في المشهد النهائي الموعود)؟...

أم إنه أزيز آخر ليس أزيز المرجل.

إنه يعلو أكثر فأكثر، يكاد يصير مثل صافرة إنذار داخل رأسي، بل هو صافرة إنذار داخل رأسي، ورأسي يكاد ينفجر، المشهد أمامي يمتلئ بقعاً حمراء وسوداء وصفراء وعيناى تكادان أن تخرجا من محجريهما.

الأزيز(أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَّزَّهُمْ أَزًّا)
[مريم 19/83]

نعم لقد رأيت الشياطين بتلك الأقنعة المألوفة التي تتنكر خلف وجوه الأصدقاء والأقران، رأيت الشياطين ينقضون، ويؤززون، ويحفزون، (أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَّزَّهُمْ أَزًّا) نعم أشهد، رأيت وسمعت، بل إن أذناى تكادان تنفجران من هول ما سمعت..

(وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) [مريم 19/82]، نعم أدرك ذلك بل إنه من طبيعة هذه العلاقات أن تتقلب على عقب ويصير الأخلاء يومئذ أعداء (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا) [مريم 19/84]، لو لم تكن معهم يا صديق لقلت آمين، بل لو لم تكن صاحب الدور الرئيسي في هذا المشهد لجلست شمت. لو لم أكن قد عرفت صدقك ونقاءك وطيبتك لهزرت كتفى وكأن الأمر لا يهمنى، لكن الآن وقد عرفت، يبدو الأمر مختلفاً جداً وشخصياً جداً ومؤلماً جداً..

(وَنَسُوفُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا) [مريم 19/86] يكادون يأخذونك متلبساً بالجريمة الآن، في قلب المشهد يكادون يسوقونك إلى جهنم ورداً..

وأريد أن أفتحم الحقائق وأغير الأشياء، أنا - المتفرج الذي

يشاهد المشهد الأول من ذاكرة مسروقة- أريد أن أندخل وأمنع عنك هذا المصير ولا أكاد أستطيع.

(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) [مريم 19/89] نعم أعترف، أعترف بالنيابة عنك وعن ذاكرتك التي تورطت بها، نعم.. شيئاً إدًّا، أنت الذي كنت تصلي وكنت قريباً من القريب المجيب ثم تتركه وتأتي إلى هنا ويقبضون عليك متلبساً في غرفة حقيرة كهذه... نعم، شيئاً إدًّا..

(نَكَادُ السَّمَاوَاتِ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) [مريم 19/90] هذا الذي هو «عادي» و«طبيعي» و«كل الشباب يفعلونه» و«دليل على الرجولة».

هذا الذي يفعلونه ويتفاخرون بفعله، ويتعلمون تنويع أساليبه وتجديدها.

أنزل الله من أجله حداً قاطعاً؛ تشريعاً يصل لحد القتل، قانوناً من قوانين السماء والأرض، وعندما نخترق هذا الحد نخرق هذا القانون، نتجاوز ذلك الخط الذي وضعه الله لنا من عليائه، فإن ذلك بالضبط يمثل أن تتفطر السموات وتنشق الأرض وتخر الجبال، أي تتحطم القوانين التي وضعها الله عز وجل للكون، بالضبط كما نحطم نحن القوانين من أجل الـ «عادي» و«طبيعي» و«كل الشباب يفعلونه».

نعم... في قلب المشهد، أنا أفهم ذلك للمرة الأولى، وأفهم أن كل واحد من هؤلاء لو أدرك ما أدركه ورأى ما رأيته لتمنى أن الأرض تنشق وتبتلعه على أن يفعل ما فعل.

لقد كان شيئاً إدًّا.

(لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) [مريم 19/94] لعلك نسيت التفاصيل، لعلك نسيت وجه أول من فعلت معها، لعلك نسيت أولئك الذين أخذوك وغلوك وإلى الجحيم كادوا أن يوصلوك، لعلك نسيت كم مرة فعلت، وكم كأساً شربت، لكن لا عليك، لا تقلق إذا نسيت شيئاً، إنه كفيل بكل التفاصيل التي نسيتها (لَقَدْ أَخْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) كل الوجوه، كل المرات، كل التفاصيل، كل الأماكن، كل الأوضاع..

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)، فرداً واحداً مجرداً من كل عزوته، من كل أقرانه الذين أسقطوه وأوصلوه إلى حيث وصل، فرداً وحيداً محاطاً بالفراغ في تلك المواجهة الهائلة..

وأراك هناك يا مسكين فرداً أعزل إلا من ذنوبك وأوزارك ومعاصيك، يأتي الإنسان إلى هذه الدنيا فرداً عارياً من كل شيء ويذهب إلى ربه كما خلقه أول مرة عارياً إلا من أعماله، فإما أن تستره أو تفضحه؛ حسب نوعيتها..

وأراك يا مسكين قد بدأت الاستعداد لذلك اللقاء الآخر وتلك الرحلة الأخيرة، أو هكذا يبدو لي للوهلة الأولى، ها أنت تتعري لتكون مستعداً للذهاب كما أتيت، أحاول أن أشرح لك أن ذلك غير ضروري، لكنني أُنَبِّه أن غريك لا علاقة له بهذا الذي أفكر به وبهذا المشهد الأول للسقوط الذي تورطت به..

فجأة أراك يا مسكين نحيلاً جداً، ضعيفاً جداً، لست جِمل ما سيحصل لك، لن تتحمل ما يرصد لك، لن تستطيع أن تتحمل ما سيرمى على ظهرك من أثقال إذا ما خطوت خطوة أخرى نحو الهاوية.

إنك مسكين يا مسكين.. لا تدري أنك بخطوتك هذه نحو
الهاوية ستضرب في التيه لسبعة عشر عاماً في الضياع، في الهباء
المطلق، في البعد عن نفسك وعنه، عن الله..

إنك مسكين، ولعلك لو كنت تدري أن هذه السقطة ستأكل
سبعة عشر عاماً من عمرك لكنت وقفت وفكرت وقدرت،
وارتديت ملابسك وانسحبت..

لكن يبدو أنه لا انسحاب.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ
تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) [مريم 19/98].

.. فجأة يختفي الأزيز ويختفي الفحيح، يعم السكون،
الصمت المريب، الهدوء الذي يلي العاصفة، لا الذي يسبقها.

فجأة تختفي الأصوات، يعم ذلك الصمت الذي يذكر بمقبرة
مهجورة لا يزور موتاها غير الرياح التي لا تلوي على شيء.

ابحث عنكما أنت وهي، لا ادري أين ذهبتما، كنتما على
وشك البدء والآن لا أدري..

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ
تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا)، لا، لا أحد، لا أحس أحداً منهم ولا أسمع
أي صوت خفي أو غير خفي..

إنه الصمت المريب، إنه السكون العجيب لكن أين
ذهبتما؟.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ)

هل سقطتم في الهباء المطلق، هل أخذتكم الهاوية على الفور؟. هل هلكتم يداً بيد وفور ارتكابكم المعصية؟.

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً).

كل أولئك الذين سقطوا قبلك وقبلها وبعدهك وبعدها، هل تسمع لهم من صوت؟ هل صرخوا وهم يسقطون؟ هل سمعنا لهم صوت استغاثة وهم يسقطون عبر هاوية ستستغرق ربما أعمارهم كلها؟

أحاول أن أنصت، أن أصغي، أتذكر الأزيز الذي أذك أذاً واستفرك وحفرك وأوصلك إلى هنا..

هل تحس منهم أحداً؟. أو تسمع لهم ركزاً؟.

لا، لا شيء، لا أحس أحداً ولا أسمع ركزاً، لا أزيز، لا فحيح، ولا أحد على الإطلاق.

ولأن الهلاك قد ابتلع أبطال المشهد فلقد فشل المشهد للمرة الثالثة.

* * *

مشهد السقوط الأول، (كلايت) مرة رابعة.

إلى المدى الأبعد ستمضيان، لا انسحاب، كل شيء يبدو مستعملاً ومبتدلاً، الكلمات المتبادلة بينكما تبدو كما لو أنها قيلت ملايين المرات، تبدو معلوكة وممضوغة ومرمية على الأرض، حتى الصمت المتوتر يبدو أنه قد استعمل ألف مرة، حتى الهواء في الغرفة يبدو أنه معاد وموبوء من كثرة الاستعمال..

كل شيء هنا معرض للعدوى الخطرة سريعة الانتقال، حتى
الأوكسجين الذي تستنشفه.

.. المقدمات التمهيدية بينكما تذكرني ببرنامج عالم الحيوان،
حيوانان يلتقيان في الغابة لا يجمعهما سوى فصيلتهما الواحدة
وغريزتهما المشتركة، يقضيانها ويمضيان كل في طريق.

طبعاً الحيوانات أفضل، إنها تمارس قانونها الطبيعي،
لكنك تخترق القانون الذي اختير لك، تنتهكه وتدوس عليه.

مع ذلك شيء في المقدمات التمهيدية بينكما يذكرني ببرنامج
عالم الحيوان بفارق أن الحيوانات أفضل؛ مع الحيوانات لا
نقود ولا قرناء يتربصون وينقضون ويغنون ويجرون، ولم
أسمع قط أنهم يصابون بأمراض..

.. عما قليل يبدأ العرض، وينتهي مع بدايته العرض، لا
يفكر الذكور بأعراضهم إلا باعتبارها ما يخص أخواتهم أو
بقية إناث العائلة، تلك هي قوانين الـ «عادي» والـ «طبيعي»
الاجتماعية، لكن قوانين السماء لا تفرق ولا تكيل بمكيالين..

لا يدرك الذكور ذلك، ويمضون في عرض رجولتهم غير
مدركين أن الطوفان واحد، وأن الدَّيْن سيسدد فيما بعد في
غرفة أخرى أو شقة أخرى أو على المقعد الخلفي لسيارة
أخرى..

ما أدركوا- أو أنهم أدركوا- وما همهم ذلك، وعما قليل يبدأ
العرض..

لا انسحاب على ما يبدو..

الإضاءة الساطعة تبدو جريئة وفاجرة، فجأة تصير الظلال حمراء لا تذكر إلا بجهنم التي ستبتلعهم جميعاً فيما بعد، العرق على الأجساد يبدأ بالتفصد، رائحة نفاذة تشبه رائحة السمك الفاسد تنبعث من مكان ما رغم أنها وضعت بحكم الحرفة التاريخية (المسك في المناطق) ورغم أنك بدافع خجل المرة الأولى وضعت أيضاً معطراً ما، لكن رغم ذلك الرائحة لا تطاق..

أعتقد ان الملمس على الأجساد أيضاً لا يطاق، ملمس يوحى بلزوجة وزناخة لن ينفع معها التنظيف الاعتيادي، ملمس دهني مستعص على الزوال.

بالضبط مثل الآثار المتروكة على الجدران والمساند والمقاعد في الأماكن العامة، الناس يتركون آثارهم عليها، مهما أعيد جليها وغسلها فهي تبقى..

.. وهنا، المشهد بكل تفاصيله مستعمل جداً، وآثار الناس تترك هذا الأثر بأن الملمس زنخ ودهني وقذر.

عالم الحيوان يكاد يصل الى مرحلة متقدمة.

المروحة تتسارع، صريها يعلو ويصير مثل حفارة في أعصابي، في رأسي، في دماغي، العنكبوت على الحائط يبدو مرة أخرى أكثر إنسانية من كل عالم الحيوان، الأقعى تخرج لسانها وتفتح سمومها.

في ركن ما بعيد وقريب يضحك إبليس ضحكة ساخرة فاجرة يتردد صداها ولكنكما لا تصغيان..

المسجل لا يزال يدور ويطلق معه تلك الأغنية الثمانية التي تبدو ركيكة جداً وسخيفة، لكن إيقاعاتها فجأة تتباطأ وتتضاءل، للوهلة الأولى يخيل إليّ أن عطباً ما قد أصاب الجهاز، لكن لا، البكرة لا تزال تدور، صوت المطرب يختنق ويتحشرج، الموسيقى تقل، تشعر بأن أعضاء الفرقة الموسيقية أخذوا ينسحبون بالتدريج من أماكنهم.

صوت المطرب يبدو كما لو كان قادماً من بئر عميق، بل من بئر يزداد عمقاً..

يختنق صوته تماماً ويحتمل تماماً أن يكون هو شخصياً قد اختنق.. يسود الصمت، إما أن المطرب مات أو أن الجهاز أصابه العطب..

فجأة أسمع صوتاً خافتاً قادماً من المسجل، يعلو بالتدريج ولكن يظل خافتاً لا علاقة له على الإطلاق بالأغنية الثمانية الركيكة ولا بالمطرب المختنق.

من بعيد أميز صوت البكاء، بكاء حارق وحاد، إنه صوت رجل يبكي، بل رجل يجهش بالبكاء وينشج..

أجفل... من كل الأصوات في العالم فإن صوت بكاء رجل يظل هو الأكثر قدرة على الإجفال والتأثير.

دموع المرأة صارت سلاحاً مستهلكاً وقديماً، والأطفال سيكون عادة بسبب وبلا سبب، لم يبق سوى بكاء الرجل يمتلك تلك القابلية على التأثير وهذا الرجل هنا لا يبكي بل يجهش بالبكاء، إنه غارق في النشيج.

.. أجفل، أتوتر، الجو كله يزداد توتراً، الرجل في المسجل يحاول أن يقول شيئاً لكن دموعه تمنعه. خلفه أسمع أصواتاً أخرى أبعد منه تبكي أيضاً، أتخيلها صفوفاً كاملة من الرجال تبكي خلفه.

فجأة ينزل علي الفهم كالصاعقة، هذا الرجل يقرأ القرآن في صلاة التراويح... أتبين في صوته قارئاً معروفاً ومنتشراً جداً. لكن ما الذي جاء بهذا الشريط هنا في هذا المكان القذر والمناسبة القذرة، لا يعقل أنهم -مهما بلغ فجورهم- يجرؤون على ذلك.. أن يمارسوا الزنى بينما القرآن يصدح في المسجل..

أهرع إلى جهاز التسجيل، الشريط لم يتبدل. من جاء به إلى هنا؟ أتذكر الآن أننا في أواسط الثمانينات وأن هذا القارئ لم ينتشر إلا بعد ذلك بفترة، في أوائل التسعينات تقريباً لكنني متأكد من صوته وهويته.

مالذي يحدث بالضبط؟ من أين يأتي هذا الصوت؟ من يلعب بأعصابي هنا؟

الرجل يحاول أن يغالب دموعه ليكمل القراءة، يتلجلج في كلمة أو كلمتين أتبين فيها تلك الآية الحارقة من سورة يس.
(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [يس 36/30].

يا حسرة على العباد، يشهق بها القارئ ويشهق معه أولئك الذين يصلون خلفه.. أشهق أنا معهم..

يا حسرة على العباد، تخرج عميقة، موجوعة، مفجوعة،

تخرج حسرة حقيقية من أعماق قلب غيور يتحسر على الناس
وهو يراهم يسقطون ويتهاوون نحو جهنم، قلب يتفطر
ويتشقق حسرة وهو يرى الناس يصرون على الخطأ، يصرون
على الخطيئة وبأيديهم يقطعون صلتهم بالله ويفتحون باب
الهاوية ثم يدلفون إليه..

يا حسرة على العباد، وفي مناسبة كهذه، غرفة كهذه، سقطة
كهذه، معصية أولى ستفتح لك باب التيه لسبعة عشر عاماً لا
يمكن للحسرة إلا أن تكون موجوعة، مفجوعة، حقيقية، صادرة
من أعماق قلب متفطر..

يا حسرة على العباد، ويكي بشدة ويكون معه، أبكي
معهم، كل واحد منا يبكي على ليله، لعله هو الآخر يتذكر
صديقاً له سقط ويتحسر عليه، لعل كل واحد من هؤلاء
الذين يكون يتحسر على صديق أو قريب وتخرج حسرته
عميقة من أعماق قلب موجوع حقاً ومتألم حقاً..

يا حسرة على العباد، يا حسرة على كل أولئك الناس الطيبين
الذين ينقض عليهم الأقران ويجرونهم إلى هنا حيث الدرك
الأسفل، حيث أسفل سافلين..

يا حسرة عليك أنت يا من عرفت نقاء معدنك وصفاء
سريرتك وصدقك.

أنت يا من كنت تصلي دون أن يعلمك أحد.. ثم انقطعت
وأخذوك وغلوك وإلى هنا جروك..

الآن أفهم هذه الآية حقاً، أجد هذا المشهد حزيناً جداً
كما لم أجده من قبل..

بل إنه يكاد يكون سبباً لنزول الآية. يخيل إلي أني لو ذهبت الآن إلى كتب التفسير وبحثت عن مناسبة نزول هذه الآية لوجدت اسمك مكتوباً هناك وهذا المشهد الحزين المفجع الذي أنا حبيس بداخله..

يا حسرة على العباد، يتعثّر بها الرجل في المسجل وهو يكملها بين دموعه ونشيجه..

وأعرف أني سأتعثر بها بقية عمري..

.. ولقد فشل المشهد مرة أخرى طبعاً..

مشهد السقوط الأول، (كلايت) خامس مرة.

.. يبدو أنك مصر على المضي إلى النهاية.

يبدو ذلك مؤسفاً جداً ومحزناً جداً.

أقول لك: لماذا لا تقول لها: إن بطنك تؤلمك الآن، أو إنك تشعر بحرقه في أمعائك وتعتذر لها! وتؤجلان ذلك؟؟

لكن لا طبعاً، إنك ستخاف الفضيحة، يجب أن تثبت رجولتك، إنها المرة الأولى وهي امتحانك الأول كما افهموك، لكنه في الحقيقة سقوطك الأول فيما لو نجحت في هذا الامتحان..

.. لا انسحاب، ستمضي إلى النهاية، ها قد بدأت في ذلك الشيء الذي لو كان معي ثلاثة شهود آخرين لاستحققت إقامة الحد، لكنني قررت: سأنسحب، أنا لن أكون شاهداً على ذلك.

لا يمكن أن أمضي أكثر من ذلك في تعذيب الذات، لقد أحبيتك حقاً ولا أريد أن أراك متلبساً في هذا المشهد، هذا

الذي هو «عادي»، «طبيعي»، «كل الشباب يفعلونه»، سيحيق بك ذات يوم ويحاصرك ولن تجد منه منقلباً.

.. أتركك وأنت فوقها وهي تحتك تتماوجان معاً في التفاصيل التي لا تختلف كثيراً عن تلك التفاصيل التي تجري بين الحيوانات (بفارق أن الحيوانات أفضل..).

(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً) [الكهف 18/99].

ها أنا أنسحب، لا أريد، ببساطة لا أريد، أغمض عيني وأشد على أذني ولا أريد.

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) [الكهف 18/101].

نعم... نعم أفهم، الغطاء الوحيد الذي تغطوا به كان عن ذكر الله، ولم يشدوا على آذانهم إلا فيما يخص سمع كلامه، لكنني لا أريد المواصلّة، لا أريد أن أرى أو أن أسمع.

أنسحب من المشهد، وقبل أن أغلق الباب خلفي يأتيني خاطر محزن: أنه إذا انسحبت أنا ودفنت رأسي في الرمال فإنه ظل هناك من عليائه يسمع ويرى.

.. لقد سقطت من عينه.

ويعني ذلك أنه في المرة القادمة عندما تغلط فلن يحميك وسيكون سقوطك أسهل..

من يهن مرة يسهل الهوان عليه.

عندما أفهم هذا الخاطر أحاول أن أعود أدراجي لأمنعك
من السقوط لكن كان الأمر قد قضي.

وما يستحق عقوبة الحد كان قد وقع.

نهاية المشهد..

* * *

صبيحة اليوم التالي..

رغم هول ما حدث فالعجيب أن الشمس ظلت تشرق،
والأرض ظلت تدور..

لكن رأسك سيظل يدور ويدور..

في أعماقك ستخرج نفسك اللوامة وستشعر بها تفرعك
وتضربك، لقد قلت لي: إنك ظللت تلوم نفسك بعد كل
مرة طول تلك السبعة عشر عاماً، لكن ما فائدة اللوم إذا
كنت مغلولاً بالسلاسل إلى عنقك وهم يجرونك إلى أين حيث
يريدون.. في أعماقك سيكون هناك شعور بأنك قد خدعت،
وأنه قد ضحك عليك، وأنت قد سقطت لقاء أمر لم يكن
ممتعاً كما توقعت، ربما كانت المقدمات مثيرة لكن الأمر
نفسه لم يكن جميلاً جداً، لم تفهم كيف ولن تفهم كيف،
لكن هذا الشعور سيظل يلزمك لفترة طويلة، ولن تعرف
لماذا تدني نفسك عليه إليه إذا لم يكن مممتعاً جداً. لن
تعرف لأنك لم تلاحظ السلاسل وأثارها على عنقك..

وأنا متأكد تماماً أن ذاك الشيء الذي في داخلك والذي
دفعك للصلاة قبلها كان ينتحب بشدة بعد كل مرة تسقط

فيها وتوغل في المزيد من الضياع..

صبيحة اليوم التالي ستمتلئ نفسك بفراغ مروع، ستشعر
فعلاً أنك قد هبطت من حالق. هل دمعت عيناك؟ لا أدري،
لكني أعرف أنك ندمت وأنت فكرت بأن تتوب، لكنهم كانوا
هناك يتربصون بك يا صديق.

صبيحة اليوم التالي الشمس لم تشرق حقاً والأرض لا تدور،
الليل الطويل بدأ ورأسك سيظل يدور ويدور... ويدور..

صبيحة اليوم التالي بدأ ذلك الفصل الطويل من حياتك،
شبابك الذي أفنيت زهرته. نفسك التي استنفذتها وعمرك
الذي أنفقته..

* * *

ستدخل الحمام..

تحت رشاش الماء البارد ستقف، وسينساب عليك بينما
تقف فاغراً فمك.

ستفرك بالصابون بشدة، في أعماقك إحساس بالقذارة وأنت
لم تتعود ذلك... لذلك ستفرك وتفرك وتفرك..

عندما تخرج من الحمام سيدهشك أن إحساسك بالقذارة
لم يتغير وأن شعورك بالدبق والزوجة لا يزال هو هو..

ستدخل مرة أخرى وتقف تحت الماء الساخن هذه المرة
عله ينظف أكثر..

وستفرك بشدة أكبر مستعملاً نوعاً آخر من الصابون، سيكاد

جلدك أن يتخدش يُخدش وأنت تفرك..

.. وعندما تخرج وتجفف جسمك سيدهشك أن الإحساس لا يزال قائماً وأن الدبق يكاد يأكل جزءاً من جلدك..

.. وستدخل الحمام مرة ثالثة ورابعة وستنغص للزوجة والدبق عليك حياتك.. سيصير عندك ولع مرضي بالاغتسال، وباقتناء أحدث مساحيق الغسيل وسوائله، وستتحدث عن ذلك، وستتحدثون عن ذلك، لكن كل ذلك سيكون محض تغطية عن ذلك الشعور السري الذي لم تخبر به أحداً: أن الدبق يكاد يأكل جزءاً من جلدك..

وستظل لسبعة عشر عاماً طويلة يا صديق تحاول أن تتخلص من هذا الدبق أو على الأقل أن تتأقلم معه، تتعايش معه.

ولسبعة عشر عاماً طويلة ستفشل في ذلك. بالتدريج لن تفرق بين الدبق وبين ملمس جلدك الأصلي... بالتدريج سيصير ملمسك لزجاً زنخاً وسينغص ذلك عليك حياتك دون أن تدري.

.. وستظل تدخل الحمام مرة تلو المرة لتغتسل وتخفف من إحساسك بالدبق..

لم تدري يا صديق أن مياه المحيطات كلها يمكن أن تنفذ وأنت تغتسل من جنبات معصيتك الأولى دون أن يخف إحساسك بالقدارة، ودون أن تُزال هذه الجنبات. لكن قطرة واحدة كان يمكنها أن تغسلك فعلاً وتزيل ذاك الشعور وتعيدك طاهراً..

قطرة واحدة من عينك، دمة توبة صادقة وحقيقية من قلب مفجوع وموجوع بالمعصية، ندمان وعازم على عدم التكرار..

دمعة واحدة كانت كفيلة بإزالة آثار جنابة معصيتك الأولى..

.. لكنك قضيت عمرك تغتسل، وضننت على عمرك وعلى نفسك بدمعة واحدة..

.. وظل الدبق يأكلك.

لسبعة عشر عاماً يا صديق..

* * *

مشهد السقوط المتكرر، (كلاكيت) بلا عدد ولا رقم ولا تاريخ.

الغرفة ذاتها، غرفة أخرى مشابهة، على المقعد الخلفي للسيارة، وأحياناً الأمامي.

بيت خالٍ لصديق، شقة صديق - قرين - يتركها لك من أجل ذلك، البيت الصغير في البستان هناك، مكتب صديق - قرين أيضاً، غرفة في فندق رخيص وغرفة في فندق غالٍ لكن رخيص، شقتك على العشب بين الأشجار (هل توجد أماكن أخرى لا أتصورها؟؟)

من يهن مرة يسهل الهوان عليه، السقوط صعب في المرة الأولى فقط بعدها يهون ويسهل..

لسبعة عشر عاماً ستظل تسقط وسيظل الدبق وسيظل الهوان.

وقد بدأ ذلك كله في يوم ما من شهر ما في سنة ما..

عندما سقطت في المرة الأولى..

* * *

.. عندما سقطت واستغرق سقوطك سبعة عشر عاماً من

عمرك فإنك لم تدر بالضبط هل كان سقوطاً بطيئاً أم إن
الهاوية كانت عميقة؟.

* * *

.. وفي ذلك الزمان المظلم، في كل ليلة من لياليه، كل ليلة
من كل شهر من كل سنة عبر سبعة عشر عاماً، لن تصدق
ماذا كان يحدث.

في كل ليلة.. كل ليلة! لسبعة عشر عاماً كان ربنا يتنزل من
عليائه إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فيقول:
من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفر
فأغفر له..

في جوف الليل وعمق الليل وسكون الليل، يتنزل ربنا..

كل ليلة من كل شهر في كل سنة يتنزل ونحن نيام، هو الذي
ليس كمثله شيء.. هو الذي ليس كمثله شيء يتنزل كل يوم
لينثر رحمته.. هل هناك من يدعوني فأستجيب له، هل
هناك من يستغفرني فأغفر له، هل هناك من يريد شيئاً
لأحققه له.

كل ليلة! لم يغب ولا ليلة واحدة، يدأب على النزول
والتفقد، إنه هو الرحمن الرحيم دأبه أنه يتودد إلينا بالنعم
ودأبنا أننا نتبغض إليه بالمعاصي..

قل لي يا صديق كم مرة نزل من عليائه ووجدك في أسفل
سافلين؟.

كم مرة نزل عارضاً عروضه ووعوده ووجدك غارقاً في

معاصيك؟.

كم مرة نزل عارضاً مغفرته؟ لو أنك طلبتها فقط، لكنه وجدك صاداً قافلاً على نفسك في تلك الغرفة أو في غرفة قدرة أخرى.

كم مرة نزل وجاء وناداك من بعيد لكنك لم تسمع..
كنت ثملاً غارقاً في أبخرة الخمر والفحش والجنس..

كم مرة نزل وجاء ووجدك قدراً مغطى بالدبق والعرق، وعرض أن يغسلك بالتوبة لكنك أعرضت وذهبت إلى (دوش) الحمام..

كم مرة نزل ليتفقدك ويعيدك إليه، أنت يا من كنت تصلي، لكنك أعرضت وأغلقت في وجهه الباب.. لكنه لم يعرض عنك وظل ينزل كل ليلة وظللت تصد عنه..

.. مللت أنت وكللت،

لكنه لم يكل ولم يمل.

حتى كان يوم، من شهر، من سنة.

* * *

لقد انتهى ذلك البؤس كله الآن، انتهى ذلك الضياع وذلك العمر الضائع الذي أكل من عمرك دهرًا، انتهى فجأة في يوم، في شهر، في سنة.

لقد ضغطت بيدك على زر ال (Delete).

وعندما ظهرت على شاشة حياتك عبارة

.Are you sure you want to delete all this?

في يوم، في شهر، في سنة، بعد ألف سنة من الضياع.
وفي عليائه فرح الله بتوبتك، هو الذي يترك لك الباب
مفتوحاً على الدوام..
.. وفي جوف الليل، في عمق الليل، في سكون الليل، جاءك
وتلقاك، هرول إليك يا صديق..
.. في جوف الليل ظل يتنزل، وكنت في وضع مزرٍ، لكنك
اليوم في وضع آخر يا صديق..

* * *

.. أستطيع أن أشهد على ذلك.

لقد تبت ورأيت التوبة، رأيتها، شاهدتها في عينيك، سمعتها
في صوتك، رأيتها تعيد تشكيل ملامح وجهك.

أشهد على ذلك، والله أشهد على ذلك، لقد رأيت شكلك
يتغير وشهدت بأمر عيني (وأبيها أيضاً!) كيف يغير الإيمان
شكل الناس، كيف تستعيد بالتوبة نضارتها وحيويتها، ورأيت
كيف تنير الهداية الوجوه بشكل حقيقي - لا مجازي - لقد
شاهدت وجهك يضيء ويستنير وينير، وعندما قارنت بين
صورك قبل سبع سنوات وصورة حديثة كان الفرق واضحاً؛
لقد نور وجهك ولانت ملامحه وبانت الهداية على تقاطيعه.

حقيقة: صرت شخصاً آخر، لا لم يكن فلاش (الكاميرا)
الأقرب هو السبب لكنه الفلاش الآخر؛ الفلاش الداخلي

الذي سطع في أعماقك فظهرت آثاره على وجهك بل حتى على (النيجاتيف)..

أشهد على ذلك، لقد رأيت هذا يحصل، بل إني أشهد على أكثر من ذلك، أشهد على عودتك للحياة بعد سبعة عشر عاماً طويلة من الموت المظلم، بعد ذلك العمر الطويل الذي التهمت فيه الكواسر جثتك، أشهد أني رأيتك اليوم تقوم من بين الأموات وتعود إلى الحياة..

نعم أشهد على ذلك في عصر لم يعد (للأسف) يؤمن بقيامة الأموات.. رأيتك تعود إلى الحياة.

ووضعت يدي على صدرك، أنصتُ، يا للمعجزة: ان قلبك يدق!.

* * *

فلماذا أعذبك إذن يا صديق بتلك الذكريات؟

ولماذا أذكرك بذلك العمر المظلم الذي مسحته عندما تبت؟.

لا أدري بالضبط، لكني أعرف أني كلما مررت أمام مدرستك القديمة (وأنا أمر بها يومياً مرتين على الأقل، كما تدري) يساورني شعور بالذنب، وكلمة (يساورني) هنا لا تعبر بالضبط عما أشعر به، فلأقل: إن هذا الشعور يحزني من رقبتي، يحزها ببطء من الوريد إلى الوريد..

كلما مررت أمام مدرستك وتذكرت أنك كنت تصلي إلى أن تخرجت منها، ينتابني شعور حاد بالذنب لا أستطيع التخلص منه.

وكلما مررت في منطقة بيتكم القديم يتأجج ذلك الشعور،

وتعذبني التفاصيل؛ في واحد من هذه الشوارع الأربعة
انقض عليك القراء، في واحد من هذه الشوارع الأربعة كانوا
يتربصون بك يا صديق، ولم يكن انقضاضهم ممكناً إلا بعد
أن انقطعت عن الصلاة، هنا في مكان ما تمكنوا منك وأخذوك
وغلوك وكادوا إلى جهنم يوصلوك..

نعم، لكن لماذا الشعور بالذنب؟. لن تصدق يا صديق،
لكنه حقيقة، إنني أشعر بالذنب لأن مثلي لم يستطع وقتها
إنقاذ مثلك، أشعر بالذنب لأنني لم أستطع وقتها أن أتدخل
لأفك الأغلال عن عنقك، لكن أين كنت أنت وأين كنت أنا
يا صديق؟..

مع ذلك أشعر بالذنب، ربما نيابة عن أولئك الذين كانوا
قريبك وتركوك تغرق ولم يتقدم واحد منهم لإنقاذك أو
ليرمي لك بطوافة للإنقاذ..

وربما أصالة عن نفسي بخصوص أولئك الذين حكايتهم
تشبه حكايته (تشبه حكايتهم حكايته)، أولئك الذين كانوا
قربي وسقطوا وتركتهم يسقطون، ووقفت أتفرج وأتحسر
عليهم: أجمني ربما خجلي وربما خوفي، وظللت أتفرج إلى أن
غبيتهم الهاوية السحيقة..

الآن خصوصاً أحس بحسرة عميقة عليهم، وأشعر بذنب لا
حدود له لأنني لم أتدخل، إنهم مثلك، تشبه حكايتهم حكايته
جداً، معادنتهم أصلاً طيبة، لن تتخيل أنهم معدون ليكونوا
حطباً لجهنم، ربما كانوا يصلون مثلك لكن في لحظة غفلة،
لحظة ضعف، انقطعوا عن الصلاة وكان الأقران يتربصون بهم
يا صديق، بالضبط مثلما حدث معك، وفي لحظة ما انقض

الوحش الكاسر عليهم والتهمهم، كما التهمك.. بالضبط.

ووقفت أتفرج... أستطيع أن أعد عشرة أسماء أو أكثر من المقربين ممن سقطوا.. كانت حكايتهم وحكاية سقوطهم تشبه حكايتك بالضبط، انقطعوا عن الصلاة، تربص بهم القراء، التهمهم الوحش الكاسر الذي لا يلتهم إلا الموتى..

.. وهناك على بعد أمتار من الهاوية، كنت أتفرج، ربما كنت أنتظر دوري، لكن ذلك المزيج المثمر الفعال من العقل والهداية جعلني أبصر، وأستمسك، وأستعصم.. وأبتعد..

واليوم، بعد أن عرفت كل ما كان، وبعد أن عرفتكم واخترقتني ذاكرتك، وامتلات بتلك الحسرة العميقة على العباد الذين سقطوا أمامي ولم أمد يدي لأنقذهم..

ربما لم أشعر بكبير ذنب وقتها، كان يكفيني أني لم أسقط معهم! لكني الآن أشعر بالذنب وبتأنيب حاد للضمير بأثر رجعي..

بل أني أشعر بالذنب تجاه ناس لا أعرفهم. تجاه كل الناس الذين معادتهم أصلاً طيبة ولم يعدوا أساساً ليكونوا حطب جهنم، ولكنهم مع ذلك يسقطون في كل يوم من كل شهر في كل سنة..

أشعر بالذنب لأنني لا أفعل شيئاً لهم، لأنني لا أمد لهم يدي.. لأنقذهم من الهاوية التي فيها سينتهون..

أشعر بالذنب، وبتأنيب الضمير، إنها مأساة الذين يعرفون تجاه الذين لا يعرفون.

* * *

ولماذا اكتب لك؟

فجأة لم أعد أكتب لك، أقصد أني أكتب لك، ولكن لا أعنيك
أنت بالضبط، فجأة صرت تمثل كل الناس، كل أولئك البشر
الأصلاء أصحاب المعادن النقية لكن المعرضين للسقوط..

فجأة صرت تمثل رمزاً لكل أولئك الذين أتمنى أن أمد يدي
لهم لأنقذهم، لكل أولئك الذين أتمنى أن أتواصل معهم..
فجأة صرت أكتب لأمتك أيادي كثيرة، أنقذ بها أولئك
الذين هم على شفا حفرة من الهاوية.

نعم، إياك أعني واسمعي يا جارة.. أكتب لك دون أن
أقصدك.. لكن الكتابة لا يمكن أن تكون إلا عبرك، إلا عبر شخص
حقيقي مر بكل ما يمر به أولئك الذين يسقطون ويتساقطون..

وبيني وبينك... أشعر أنك تجاوزت هذه المرحلة وأنت لن
تعود أدراجك بعدما تبث وتذوقت حلاوة الإيمان واستشعرت
القرب منه عز وجل، لا أقول ذلك لأتملقك، بل تقديراً لأمر
واقع أستشعره، وأشهد دلالاته..

لكن مع ذلك أقول لك، التوبة أحياناً لا تكفي، لا أقصد
أنها لا تمحو الذنب، لا، لكني أقصد أنها لا تمحي (تمحو)
ذنبك تجاه الآخرين، أولئك الذين يسقطون ولا يجدون من
يمد لهم يداً.. لينقذهم..

كلنا مذنبون فيما يتعلق بذلك، كلما وقعت واقعة سقوط
فالمذنبون الأساسيون ليسوا الفاعل و (المفعول بها) فقط،
بل أولئك الذين لم يتدخلوا ولم يمنعوهما، ولم يمدوا
يداً منذ أن بدأت أولى مقدمات السقوط..

لا نجاة إلا بأن تمد يديك، وأمد يدي... يمدوا أيديهم..
ولو كان ذلك قد حدث من البداية، لما سقطت أنت، ولما
سقط هو، ربما لما سقط إلا الساقطون..

.. وذات يوم، ذات شهر، ذات سنة، ستطير كلماتي من
أوراقها، ستخرج من الصفحات البيض كالمارد من القمم
وتتطاير في الهواء، تارة تصير بلبلاً يصدح، وأخرى تصير كنارياً
يغرد، أو نورساً يحلق، أو هدهداً يغار، أو صقراً يحارب..

.. وعندما تأتي الشياطين لتؤزهم أژاً، ستأتي كلماتي لتحارب،
وفوق كل رأس سيكون هناك تلك المعركة.. وتلك الحرب..
وهي معركة من المؤسف أني لن أكون هناك لأترقب نتائجها..
وفي تلك المعركة الغامضة الفاصلة سأحتاج إلى دعائك..
فمد يدك وادع لي... يا صديق.

2002/6/21

مكتبة بيلوئيلا